في وداع كاظم الزيدي سادن المسرح الشعبي

عبد الخالق كيطان

١

لم يكن كاظم الزيدي وجهاً معروفاً في الشارع العراقي... هكذا ظل يواظب على هوايته في عشق شارع الرشيد والباب الشرقي وساحة الطيران.. كان يدرك أنه مؤثر في الخارطة المسرحية العراقية دون ادعاء ودون أن تتلقفه الصحف والمحطات التلفزيونية أو أن يحظى بنظرات الاعجاب التي يستحقها من قبل الجمهور العراقي.. والمسرح أبو الفنون، جامع المهن والمواهب، خلف ستائره يقف المئات من المبدعين، يجيئون ويرحلون بصمت مفجع فيما الأضواء البراقة لا توجه إلا لسيد الخشبة المرئي: الممثل.

كاظم الزيدي كان واحداً من أبرز رموز الزمن الجميل، الزمن التأسيسي، زمن الرصانة لجهة عصامية رجاله ونسائه.. وصعوبة الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كانوا يعيشون تحت ظلها.. عقود طويلة من الزمن مرت والزيدي يعاصر الأجيال المسرحية، يعمل مع هذا ومع ذاك بصفته الشهيرة مديراً للانتاج. بل أنه تبوأ هذا المنصب في عدة فرق عريقة وشركات كبيرة، وكان ناجحاً في عمله، ومؤثراً بشهادة من عاصروه وعملوا معه وبمعيته، وهم كثر.

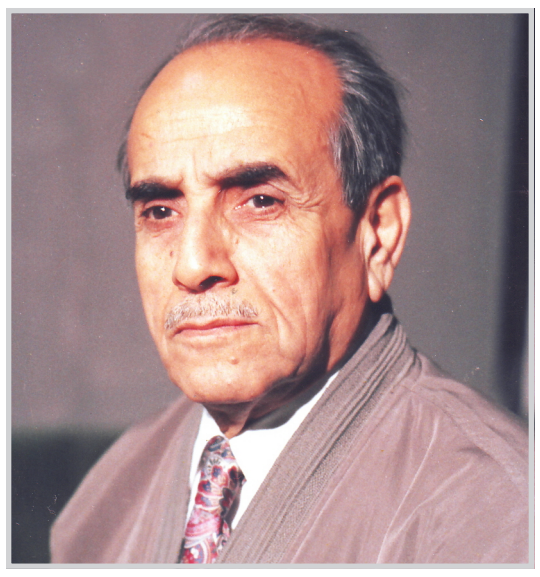

كاظم الزيدي

٢

مسرح الحدث هذه المرة ساحة الطيران، بالقرب من مكانه الذي قضى فيه العشرين عاماً الأخيرة، ونعني مجمع سينما ومسرح النجاح، وأيضاً مجمع روكسي سابقاً.. المشهد كما يخيل لي تم بالشكل الآتي:

حشد من العراقيين في هذه الساحة المكتظة بالألم والذكريات... بالجوع والأحلام أيضاً... حمامات فائق حسن يبحثن عن فضاء آمن.. وباعة الشاي على الأرصفة يأملون بزبائن في هذا الخوف العرمرم.. كاظم الزيدي يمر بين الحشود متأملاً وآملاً.. كانت هذه الطرقات دليلاً على الخطوات الأولى لأجيال من المسرح العراقي.. كلهم مروا من هنا، قال الزيدي في سره.. وبين لفتة وأخرى كانت الإشاعات تسري مثل النار في الهشيم.. بالرغم منها.. الناس تمشي إلى أعمالها..هكذا اصطاد الانتحاري اللعين لحظته... ففجر نفسه أملاً بالحور العين!! وتناثرت الأجساد في الفضاء... مشهد سينمائي كان الزيدي يحلم بأن يكون من بنات خياله الشخصي.. هو الذي حضر تصوير أغلب المشاهد في أول الأفلام العراقية (فتنة وحسن، الدكتور حسن،أوراق الخريف ...)... ولكن اللحظة الآن حقيقة، فيا للرعب. وتتلقف الأيدي المروعة تلك الأجساد المقطعة البريئة.. واحدنا فقد ساقيه على الفور، وعندما وصل المستشفى كانت روحه قد فاضت إلى السماء... لعلها الآن تشكو ظلم البشر للبشر.. والبشر صنفان كما قال سيد البلاغة: أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، فمن اي البشر هؤلاء المجرمون السفلة الذين صمموا وأخرجوا ونفذوا هذا المشهد الدامي في ساحة الطيران؟

٣

عرفت كاظم الزيدي متأخراً، ذلك بسبب عمري قبل كل شيء، وبالرغم من أنني قضيت معه أقل من ٥ سنوات، عندما كان يعمل فيها مديراً للانتاج في مجمع سينما ومسرح النجاح، فإني أزعم بمعرفته الموثوقة.. كان أستاذي في الدرس الأكاديمي شقيقه الفنان والمربي الكبير الدكتور عبد المرسل الزيدي.. وقد لحظت في الشخصيتين ذلك الانطواء الأخاذ.. إنهما يبتعدان بقوة عن مراكز الجذب الرسمية بالرغم من كفاءتهما.. وعلمهما.. وتاريخهما.. ورصيدهما الفني الكبير.. يمضيان بقوة نحو عزلة أختاراها بمحض الارادة.. عزلة كانت للكبار في تسعينيات العراق المعاصر شرطاً للنقاء والطهر.. كنت أمر على مجمع النجاح ويستقبلني كاظم الزيدي من باب المسرح ليأخذني إلى غرفته البسيطة.. وهناك يحكي لي قصصاً عن زمن مضى ولكنه ظل عالقاً في ذاكرته.. تجاعيد وجهه تحكي ايضاً.. وكان الدكتور عبد المرسل يستقبلني في شقته في شارع حيفا بالحفاوة نفسها لنمضي ساعتين وفنجان قهوة من أجل الاعداد لمهرجان مسرحي أو ترتيب جلساته النقدية..الرجلان علماني ما لم أعلم.. الرجلان أحببت فيهما ذلك الطهر الأخلاقي.. النادر في هذا الزمان.

٤

الوسط الفني كله يعرف من هو أبو أركان.. ولكنه لم يكن يحظى بالكثير من الوجاهة.. عميد مسرحنا القدير يوسف العاني كان يرى فيه مثال الانضباط.. مثال العشق الصوفي للخشبة وتاريخها.. كان يرى فيه مسرحنا العراقي وقد مر من مرحلة إلى أخرى.. محيط كاظم الزيدي وعائلته ايضاً كان في مسرح النجاح، تلك الحقبة التي كنت شاهداً عليها.. وبالرغم من سمعة المسرحيات الاستهلاكية التي صبغت هذا المسرح وفرقته فلقد كانت ثمة الكثير من الالتماعات.. التماعات شارك فيها نجوم كبار مثل: مقداد عبد الرضا، عواطف نعيم، محمود أبو العباس، ليلى محمد، قاسم الملاك، هناء محمد... يقف خلفهم مخرج موهوب في المسرح الجماهيري هو الفنان محسن العلي.. قدم مسرح النجاح في هذه الفترة العشرات من الأعمال، كان بعضها جريئاً ومبدعاً مثل: الباب العالي.. كما قدم الاستعراضات الناجحة كما هو الحال مع: سيدتي الجميلة.. واحتضن مسرح النجاح فعاليات ثقافية كبرى، كانت تتم بدعم وتأييد مباشر من قبل الزيدي والعلي، وأخص بالذكر تلك الأمسية الاحتفائية التي قل نظيرها في مسرحنا العراقي عندما تم تكريم الرائد الكبير سامي عبد الحميد على هذا المسرح بمبادرة من الصديق علي حسين ودائرة السينما والمسرح والفرق المسرحية الأهلية والرسمية.. كاظم الزيدي كان أول من يبارك مثل هذه النشاطات، ولقد سحبناه، أنا وعلي حسين مرات إلى منتدى المسرح، القريب من سينما النجاح من أجل حشد الدعم لمسرحيات الشباب التي كانت تقدم على المنتدى، حتى صار،وفنانون كبار آخرون، من الوجوه المعروفة في المنتدى. ولقد شكا لي غير مرة، كما فعل الفنان محسن العلي، من نية ما كان يعرف بالتجمع الثقافي العراقي الذي ترأسه عدي صدام حسين في ذلك الوقت، الاستيلاء على مجمع النجاح وحروبهما الطويلة والمريعة من أجل الابقاء على هذا المجمع خارج سيطرة عدي... وتلك قصة ثمة من هو أجدر مني بسردها. ما يعنينا هنا هو مثابرة الزيدي وحرصه على أن يظل حراً، حتى ولو كانت هذه الحرية مصحوبة ببعض خيبة الأمل أزاء ما كان يتلفظ به بعض الممثلين على خشبة النجاح من ألفاظ وحركات نابية.

٥

ها أنت إذن أيها المعلم، الطيب، الرقيق، الهادئ تنهي آخر المشاهد في حياتك.. كان مشهداً ضاجاً بالدم والألم.. والقصة لم تنته.. لقد سقط في هذه الحرب القذرة الكثير من المبدعين وكنت أباً لهم جميعاً.. أيها السيد المبجل.. ويا سادن المسرح الشعبي العراقي.. أيها الكبير بنبل الأخلاق وعشق الخشبة.. كنت لنا اباً وصاحباً فأعذرنا من العقوق.. وموعدنا في فضاء لا نهائي.. سرمدي.. عندما تتخلص الانسانية من بقايا البدائية التي فيها ويصبح الانسان عزيزاً مكرماً ونبيلاً.

الأغنية العراقية: نجاحها وإخفاقاتها

كريم ناصر

من الخطأ الجسيم وصم الأغنية العراقية بالتخلف، فليس من العدل الحكم جزافاً على تاريخ فني طويل بعدد من الكلمات، ولا يمكن بطبيعة الحال أن ننكر ما حققته أغنيتنا على مستوى التلقي منذ تبلورها على يد فنانين مهرة، وإذا ما درسنا تاريخها في العقود الثلاثة الأخيرة، لتوصلنا إلى نتيجة منطقية تضع الأغنية العراقية في أعلى المستويات، ما عدا الأغاني التي تحاول العودة إلى الماضي بواسطة لغة الشارع المبتذلة بصفتها نسخة طبق الأصل من ثقافة القطيع.

ولقد لاحظنا ذلك أيام الحقبة الفاشية، حينما كان الصبي (عدي) مهيمناً على الكثير من المرافق في العراق، وعلى الأخص قسم الإنتاج والموسيقى في الإذاعة والتلفزيون..

حيث كانت الأغنية في تلك الحقبة بائسة شكلاً ومحتوى، وأداء، وذلك بسبب تدخلات المؤسسة السلطوية في الحياة الفنية العامة، مما أنتجت بنية هشة غير قابلة للتطور وغير مستساغة على صعيد التلقي فنياً واجتماعياً..

ونحن نعرف أن الفن السلطوي لا يحمل دائماً الصورة الحقيقية والمعلمية للواقع، كونه أداة هدم قبل أن يكون أداة بناء، ومثل هذا الفن لا يمثل إلا نفسه بصفته شكلاً انحرافياً مشوهاً يعكس إسقاطاته على واقع الحال بصورة رديئة.

ولكن ذلك أيضاً ليس معياراً لمقاربتنا هذه، إذا ما قلنا إنه بين الحين والحين تظهر أغنية جادة تحمل سمات الفن الجاد مثل: (أغنية الناقة، إتعودت عيني عليك) لمحمود أنور،و (آنه وين وانته وين) لكريم حسين، (مرة ومرة) لرياض أحمد، (لعيونك أنت ياحلو) لسعدون جابر، أنا وليلى، قولي أحبك، استعجلت الرحيل، زيديني عشقاً) لكاظم الساهر، وغيرها من الأغاني الإبداعية، فضلاً عن الأغاني التي أنتجت خارج العراق مثل (خطار) لإلهام المدفعي. و أخيراً (يا أهلنه بالعراق) من أداء سرور ماجد وفريدة ومحمد حسين كمر.

إننا لو أحصينا عدد الأغاني الجادة في حقبة السبعينيات، لوجدنا أن النسبة الأكبر منها استطاعت على نحو مدهش أن تحقق نجاحاً منقطع النظير على صعيد التلقي.

ونستطيع القول أيضاً إن مصدر نجاح أغنية السبعينيات تعود مرجعيته غالباً إلى قوة بنية النص الشعري في المقام الأول، المتمثلة في تراكيب الجمل الشعرية الإبداعية التي نعتبرها من وجهة نظرنا أساساً متيناً للبناء المعماري للنموذج الفني، وإلاّ فما نفع إنتاج عمل غنائي كبير وبلحن كبير وأداء جيد من دون الاعتماد على كلمات عميقة المعنى وذات دلالة.

إن خلاصة نهائية لهيكلية الأغنية السبعينية تقودنا إلى فهم واحد وليس غيره، كما أن الوعي المعتمد في تلك الحقبة بالذات، كان يؤسس لنمط فني مغاير وتجديدي لمنح الأغنية شكلها الحضاري المتطور، كما لاحظنا ذلك في الأغاني التي أداّها فنانون مبدعون.

لا شك في أن أغاني مثل: (يا حريمه، حبيبي انساني وآنه انساك، غريبة الروح، والبنفسج، روحي، والريل وحمد، واشموع الخضر، وأوفي عهدك، ما عاشرتهم، سومري، وما جنك هذاك انته، واتلولحي، وأثر فرحة، والطيور الطايره، وهله يابه، وساعي البريد، عد وآنه أعد، والكريستال، واعدتني، ويكولون غني ابفرح، مشتاك اجيتك، عشك أخضر، ليلة ويوم، وياعشكنه، تعالي، انتظرتك، يحاجي الناس كلها وما يحاجيني) هي ثمرة التقنية الشعرية قبل أن تكون ثمرة المجهودات اللحنية.

وعلى الرغم من تسلط الأغنية التعبوية على الواقع الفني في الحقبة الفاشية، والتشويه الذي اعتورها، غير أن هذا أيضاً ليس معياراً ثابتاً لقراءة الأغنية كتحصيل حاصل، كما أسلفنا قبل قليل.

والحقيقة على الملحن الجاد البحث قبل كل شيء عن النص الشعري المكتمل البناء معمارياً، والابتعاد قدر الإمكان عن الأسماء الكبيرة المخضرمة، لأن فكرة كهذه من شأنها أن تؤدي إلى تكريس أغنية أحادية الجانب والمعالجة الفكرية، في حين يتطلب غالباً ضخها بدماء جديدة وآفاق توحي بالحيوية والتنوع.

لذلك فليس كل ملحن قادراً على إنجاز عمل موسيقي كبير، أو تلحين (قصيدة) إذا لم يكن هذا الأخير مثقفاً موسيقياً، لكي يرقى إلى مستوى الشعر وتأويلاته.

نحن نعرف أن تلحين قصيدة باللغة الفصحى أو العامية يتطلب وعياً عالياً، ولغة موسيقية متكاملة الملامح، إضافة إلى خيال واسع ينقل الموسيقي إلى أجواء (الشعر موسيقية) والفنتازيا والتغريب.

كما أن اللحن الكبير يستدعي في أغلب الأحيان جهداً بمستوى النص الغنائي المعتمد أصلاً على رؤى شعرية متضمنة، لا تخضع لمعايير ساذجة، وبنية سردية مملة.

إن أفضل ملحنينا أولئك الذين أنتجوا الأغاني الكبرى ذات الطابع الطولاني . القصيدة أنموذجاً أمثال: طالب القرغولي، ومحمد جواد أموري، وياسين الراوي، وكوكب حمزة، وكاظم الساهر.

فما زالت الذاكرة العراقية تحتفظ بكم هائل من الأغاني المسمّاة القصيدة الغنائية، مثل: ياحسافه، ودوريتك، والطيور الطايره، ومسافرين، وحاسبينك الخ..

ولكن مع ذلك لا يمكن تلحين هذا النمط من الأغاني، دونما وعي مسبق باللغة واللهجة وطريقة اللفظ للكلمة، فإنه من الخطأ الكبير تلحين القصيدة الشعرية ذات الطابع الطولاني، ما لم تتضمن مقومات الأغنية العصرية مثل: سلامة اللغة، ووضوح المعنى المتضمن، وليس المعنى المسطح، من باب أن ليس كل قصيدة قابلة للتلحين وتنسجم مع إيقاعاته الفنية.

ومن جانب آخر لا تصلح القصيدة الشعرية غالباً للتلحين، إلاّ إذا احتوت ضمناً على مضامين عاطفية، أو سياسية، أو وطنية قريبة من نبض الشارع ومشاعر المتلقين تصور الحبيب أو البطل الأيديولوجي المناضل في إطار ملحمي وسياق سلس، انطلاقاً من تعابير ذات إيقاعات موسيقية قوية.

قصة قصيرة

وجوه علي طالب

تصوير علي طالب

حمدي مخلف الحديثي

١

الصبي، ايقظته امه من فراشه ذات صباح بصراوي شديد الرطوبة، اخذته امه بيدها الى السوق الشعبي القريب من البيت لشراء السمك والخضراوات، راح يحدق في وجوه الرجال والنساء، يتأمل الملامح التي خط عليها الزمن تجاعيده.

٢

وهو الذي ولد في يوم شتائي وعلا صراخه الاول مع صفير السفن القادم الى البصرة والمغادرة.. كبر، وعرف صورة الوصي والملك فيصل الثاني، احس بأن اصحاب هذه الصور لا يستطيعون تغيير وجوه الاطفال الكالحة والنساء الحزينات.

٣

الذي كبر.. تزوج وصار يمتلك بيتاً خاصاً به وعائلته بعد ان غادر البصرة اثر تخرجه في اكاديمية الفنون بسنتين وسكن بغداد.. اصبح يرى الوجوه برؤية اخرى، وتمنى ان لا يراها وتبقى وجوه الطفولة في ذهنه.

٤

وجوه اليوم عذبتها السجون ودمرتها الحروب، بدأت تسيطر على قماش لوحاته والوانه، واذا حدق في المرآة احس بهواجس غريبة بينه وبينها.

٥

وجوه اخرى خذلته في الحب والصدق ووجوه وشت به عند رجال الامن ووجوه سرقت منه احلامه ووجوه كانت تتلون امامه وتعلن نفاقها.

٦

وجوه..
ومرسمه امتلأ بتلك اللوحات..
وجوه من دون أجساد، وعيون معصوبة واثار قبلات مخادعة..

٧

بعد كل تلك السنين، أكان الرسام (علي طالب) يعلم بأن الاجساد تدفن هذه الايام في المقابر من دون رؤوس؟
وقبلات الامس التي كانت مطبوعة على وجوه لوحاته اليوم هي اثار اطلاقات نارية؟!

رسالة القاهرة

مسرحية الشبكة على المسرح القومي وعودة العمالقة من جديد

علي الشجيري
القاهرة

تقدم حاليا وعلى خشبة المسرح القومي مسرحية "الشبكة" المأخوذة عن مسرحية الكاتب الألماني الكبير برتولد بريخت المسماة "ماهاجوني" أو "صعود وسقوط مدينة ماهاجوني".. التي ألفها عام ١٩٢٩ كأولي مسرحياته بعد تأليفه أوبرا ٣ بنات. والمسرحية صاغها من خلال الإعصار الشهير الذي تعرضت له فلوريدا وحمى البحث عن الذهب وبدايات تكوين الولايات المتحدة الأمريكية والصعود الرأسمالي فيها.

والكاتب ذاته له مسرحية الإنسان الطيب والأم الشجاعة بالإضافة الى مسرحية دائرة الطباشير القوقازية.وقد ترجم هذه المسرحية الى العربية د . يسري خميس وأخرجها الفنان القدير سعد اردش الذي اخرج له من قبل مسرحية "دائرة الطباشير القوقازية" وقد أخرجها من قبل المخرج الألماني كورت فايل. يعود هنا الفنان سعد اردش بهذه المسرحية الى خشبة المسرح القومي بعد غياب طويل وان لم يبتعد خلال هذه المدة عن الإخراج والتمثيل مع كونه احد أساتذة المعهد العالي للفنون المسرحية في أكاديمية الفنون مستعينا بمجموعة من الشباب والشابات الذين احتاجوا الى وقت طويل لضبط إيقاع الحركة التعبيرية والرقص الكثير المصاحب للأداء.

مكان مسرحية بريخت ليس في ألمانيا ولا في أوروبا بل في أمريكا حيث تخيل بريخت مدينة أمريكية تؤسسها جماعة خارجة عن القانون وبعيدة عن السلطات التي تطاردهم بعد استيطانهم المدينة .."ماهاجوني" مدينة وهمية تتزعمها سيدة ومهمة العصابة اصطياد الأغنياء الجدد العائدين لتوهم من ألاسكا متخمين بالذهب . قانون المدينة المال والأكل والشرب والجنس والعنف وهو نظام غير إنساني وظيفته نشر العنف وتدمير كل المعاني الإنسانية مثل الحب والصداقة والعمل أيضا . "ماهوجني" مدينة للشهوات والملذات والعنف والجنس ليصبح كل شئ مباحاً فيها حيث فندق الرجل الغني وتعني انه طالما تمتلك المال فكل شيء مباح أمامك لتفعله. يصل المدينة أربعة أصدقاء يدركون إن العنف والمال هما النافذان في المدينة وبغيرهما تستحيل الحياة في هذه المدينة التي صورها بريخت لواقع الرأسمالية الاستهلاكية في أبشع صورها . يقتل الأصدقاء الواحد تلو الآخر فالأول يموت جشعا ونهما للطعام والثاني يقتله احد رجال زعيمة العصابة في حلبة ملاكمة . والثالث يحكم عليه بالإعدام في محاكمة صورية تترأسها زعيمة العصابة نفسها والسبب أن المتهم لم يدفع ثمن مشروباته بعد خسارته نقوده في رهانه علي صديقه في الملاكمة . أما الرابع فقد تنكر لصديقه المتهم واثر السلامة فانضم لعصابة السيدة .

البطولة هنا لسيدة المسرح العربي سميحة أيوب العائدة للمسرح القومي وهي التي قدمت عليه أروع وأبدع الأدوار التي كتب لها الخلود بجانب عملها كمديرة للمسرح في فترة سابقة. تقول بطلة المسرحية " موضوع المسرحية يقترب من واقعنا علي الرغم من انه عمل اوبرالي يسمح بفرجة استعراضية غنائية ممتعة وهي عن ترجمة للدكتور يسري خميس الذي حافظ علي مضمون النص البريختي كالواقع والأسماء والشاعرية بحساسية مصرية استدعت اختصارات وإدخال تعديلات قليلة في إضافة من الدكتور سمير احمد مصمم الديكور وهي عميقة لأبراج البترول المختلطة بناطحات السحاب في خلفية مشهد المدينة في دلالات ساهمت بفاعلية في تأكيد رؤية المبدع سعد اردش في حواره مع اللحظة".

وأضافت "لقد سبق لسعد اردش أن اخرج من أعمال بريخت مسرحيتي "الإنسان الطيب" و"دائرة الطباشير القوقازية" والمسرحيتان قمت ببطولتهما.. والشبكة تؤمل لأحوالنا ومصائرنا وما يحدث لامتنا لعلنا نتوحد ونحاور اللحظة والواقع وهو ما يهدف أليه الفنان المبدع سعد اردش في اختياره "مدينة ماهوجني" بجانب اهتمامه بالكورس والاهتمام بكل دقائق العرض. الفنان محمود حميدة هو نجم سينمائي يقف اليوم على خشبة المسرح.

إذن مالجديد الذي جاء به سعد اردش في هذه المسرحية.انه قدم الحركة بشكل جيد تحمل حيوية الواقفين على خشبة المسرح بمن فيهم بطلا العمل بل إن محمود حميدة قدم حركة بنشاط من كان عمره عشرين عاما . الديكور الذي استعان به أردش كان جيدا بشكل استطاع أن يقدم للمشاهد المدن القديمة لرعاة البقر في أمريكا والملابس المميزة لهذا العصر.أي صورة مناسبة توافق الحدث . أشعار جمال بخيت قدمت جوانب ايجابية وافقت النص . الموسيقي وألحان الأغاني كانت لزياد الطويل وهو ابن الموسيقار الراحل كمال الطويل .وكانت الموسيقي هنا في مجملها جيدة . لكن مع هذه العناصر الجيدة التي استخدمها سعد أردش إلا إن العمل كان بحاجة إلي ما يمكن آن نقول انه تفسير أكثر أو إيضاح أكثر للمتلقي مع الاعتراف بجهد رائع في العمل . الفنانة سميحة أيوب قامت بدور مختلف تماما عن كل ما قدمته بالمسرح فهي زعيمة عصابة ومديرة ملهي وكباريه وهي ادوار لافرق بينها إذ قدمت الجانب السلبي من الإنسانية بمنتهي البراعة.

محمود حميدة كان ممثلا بارعا مجيدا للدور الذي قدمه وهو دور راعي البقر وكان مفرط الحساسية في الأداء كما كان البقية بمثل هذه الجودة الأدائية.